كامل جابر: وجع أكبر من الحجر.. مثقفو جنوب لبنان ينعوز

كامل جابر 2026\5\19 اندبندنت عربية

WhatsApp Facebook Twitter +Google

طال الدمار آلاف الكتب في منازل الجنوبيين

المكتبات، التي شكلت جزءاً من الذاكرة الثقافية والتاريخية تحولت إلى ركام مع البيوت والقرى والمؤسسات التي طاو

أدت الحرب الإسرائيلية على جنوب لبنان وضاحية بيروت الجنوبية والبقاع إلى خسائر بشرية ومادية هائلة، لكن من مئات المكتبات الخاصة والعامة التي احتوت كتباً ومخطوطات ووثائق نادرة يعود بعضها إلى مئات السنين.

هذه المكتبات، التي شكلت جزءاً من الذاكرة الثقافية والتاريخية لجنوب لبنان المعروف بإرثه الأدبي والعلمي، تحولت والمؤسسات التي طاولها القصف. وفقد كتاب ومؤرخون وباحثون أرشيفاتهم الشخصية ومخطوطاتهم ومجموعاتهم الـ جمعوها على مدى عقود، وبعضها لا يمكن تعويضه

في جنوب لبنان وضاحية بيروت الجنوبية والبقاع (شرقاً) أدت الحرب الإسرائيلية تحت وطأة تهديداتها وإنذاراتها الم بدأت في الثاني من مارس (آذار) الماضي وحسب، بل في حرب الـ66 يوماً بين الـ23 من سبتمبر (أيلول) والـ27 م بينها من هدنات وقرارات وقف إطلاق النار، إلى سقوط أكثر من 6900 قتيل و25 ألف مصاب وجريح، وإلى نزو وتدمير مئات الألوف من البيوت السكنية والمباني المدرسية والمراكز الدينية والبنى التحتية من طرقات وشبكات مياه

لكن ثمة "وجع" مستتر يصفه أصحابه بالكبير نتيجة تدمير هذه الحرب مئات المكتبات الخاصة والعامة التي تزخر به الإسرائيلية وتحديداً الجنوب، وتحوي مئات مؤلفة من الكتب التي يعود تاريخ كثير منها إلى 200 و300 عام سلف.

مكتبات حديثة وتاريخية

جنوب لبنان الذي يعرف بـ"جبل عامل" ونهضته العلمية المبكرة ومدارسه القديمة، أعطى الشعراء والكتاب والعلماء وعبدالحسين صادق وسليمان ظاهر وأحمد رضا، وبولس سلامة وإملي نصرالله وجورج جرداق وجوزف حرب وحـ شمس الدين ومحمد وحسن وعصام العبدالله وإلياس لحود ومحمد دكروب وجواد صيداوي وعصام محفوظ وحسن كا والشعراء والتشكيليين الراحلين والأحياء، إلى جانب الألوف من الباحثين والمعلمين والأطباء والمهندسين والمحامين

وعرف هذا الجنوب تاريخياً بمكتباته الشهيرة، ومن الطبيعي أن تكون بيوتاته ودوره عامرة بالمكتبات المتفاوتة الأحـ عما دأبت عليه مئات البلديات والأندية والجمعيات والمدارس وبعض الجهات الدولية أو المانحة من إقامة مكتبات عا جنوب نهر الليطاني وفي شماله وصولاً إلى صيدا وجزين، الحدود الشمالية لجنوب لبنان.

وخسارة الجنوبيين مكتباتهم لم تقتصر على المناطق الجنوبية وما كانت تحتويه بيوتهم من مكتبات صغيرة أو كبيرة، العاصمة بيروت التي نزحوا إليها ليس من الحرب الأخيرة أو قبلها في 2024، بل منذ الاجتياح الإسرائيلي الكبير الا

الليطاني الذي أطلقت عليه تسمية "عملية الليطاني" عام 1978 وما تلاه من احتلال لهذه المنطقة مدة استمرت نحو ر
حروب واجتياحات كان أكبرها "اجتياح 1982" الذي وصل إلى العاصمة بيروت وحرب 2006 المدمرة للجسور و
تتعرض له مناطق بيروت وتحديداً الضاحية الجنوبية منها، كان الجنوبيون يتحدثون عن مكتباتهم التي أكلتها نيران ال

كتاب وباحثون ينعون مكتباتهم

في الحربين الأخيرتين 2024 و2026 حفلت مواقع التواصل الاجتماعي والمواقع الإعلامية المختلفة بكثير من قصد
الإسرائيلية وما تخللها من تدمير منهجي كلي لأكثر من 30 بلدة أو قرية عند الحافة الأمامية من الحدود وأكثر من 0
الحدود وفي جميع القرى والبلدات التي تعرضت ولم تزل، إلى غارات تدميرية جنوب الليطاني وشماله، فإلى ضاحية
على تدمير أو تلف مكتبات كبيرة الحجم وواسعة العناوين، ففي كل بيت جنوبي ثمة مكتبة من مؤلفات متواضعة ودوا
متوسطة أو كبيرة، ناهيك بمكتبات متوارثة عن الآباء والأجداد ومرجعيات دينية وثقافية نشرت مئات البحوث والكتب
الجنوبية.

منذ أيام عدة كتب المؤرخ الأديب أحمد بيضون على صفحته في منصة "فيسبوك" تحت عنوان "إبادة الذاكرة، مكتبات
أصدقاء كثر، في الأسبوعين الأخيرين، قلقهم على مكتبتنا، عزة (زوجتي) وأنا، في بنت جبيل، وأشار إلى مكتبتنا أيض
هو التي أعرفها حق المعرفة، وفيها كنوز لا يدانيها ما في مكتبتنا من قريب ولا من بعيد، وفيها أيضاً عمر من الكدح
على أن منذر جابر، وهو العاملي ’البنت جبيلي‘ بئراً وغطاءً، نوه أيضاً بكثرة المكتبات الشخصية في بنت جبيل، وبع
من المخطوطات والطبعات القديمة ومن الشواهد على تراث الأدب والدين والسياسة في جبل عامل ما يتعذر تعويضه

وأضاف "مكتبات بنت جبيل، بل مدينتنا بأسرها، ذهبت بها الهمجية العنصرية، في هذه الأثناء، وفجعت أهلها بأعزاء
والديار وما تخلف فيها من الشواهد على أعمارهم، الهشة دائماً، وعلى عمر المدينة وهو يقاس بالقرون. وكانت الهمج
2006، ومعه الأمل في استعادته".

وقال "ذهبت مكتبتنا، في ما ذهب، وأدرجناها، مع موقعها الفريد من النفس، بين أقل ما ذهب وأهونه. ضاع فيها ما ي
أتحدث عن نصيب عزة منها) وسلم - إلى الآن! - النصف الآخر القابع في بيروت. وضاع أيضاً، وهذا لا يعوض فعا
من أوراقي وملفاتي، من محفوظاتي على اختلافها. هذه المحفوظات هي جبل الجليد الذي لا يكون المنشور من الأعم
هذا العمر الذي أدرك ارتفاعه الأخير".

خسرت مكتبتي الجنوب والضاحية

بعد الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان في الـ25 من مايو (أيار) 2000 دفعت الحماسة بمئات الجنوبيين للعودة إ
تهجير ونزوح، وشرعوا ببناء بيوت لهم أو تحسين بيوت آبائهم وتوسيعها، وإليها نقلوا مكتباتهم أو أقساماً من مكتباته

إلى مركبا (مرجعيون) عاد المؤرخ والأديب عبدالمجيد زراقط صاحب عشرات المؤلفات والروايات التي كان لم يزل
فبنى بيتاً جميلاً سيجه ببستان ونقل إليه جزءاً كبيراً من مكتبته التي كون معظمها في العاصمة بيروت، بعدما لجأ إليه
1978 هرباً من تضييق المتعاونين مع إسرائيل عليه في حينه، لكن وجع زراقط لا يقتصر على مكتبته التي دمرتها
تلك الكبيرة والرئيسة في شقته السكنية بضاحية بيروت الجنوبية، التي تحولت إلى أنقاض مع المبنى الذي انهار في إ

يقول المؤرخ زراقط "كانت لدي مكتبة قسمتها بين الضاحية الجنوبية ومسقط رأسي مركبا، دمرت إحدى الغارات بيت
الأمر في مركبا الذي هدمته إسرائيل. يوم هدم بيتنا في الضاحية كنت خارج البلاد لأتسلم جائزة 'كتارا' للرواية العرب
من العمال بالبحث عن كتب المكتبة فأنقذنا بعضها، عدداً بسيطاً جداً. مكتبتي ببيروت كانت تحوي ما جمعته من المر
مقاعد الدراسة إلى تاريخ تدميرها، بينها كتب كثيرة ونادرة ومخطوطات كثيرة لأدباء عامليين آخرين ولي أيضاً لم أن
العلماء الشعراء في جبل عامل".

مكتبتي فيها 20 ألف عنوان

ويضيف "في مركبا الأمر نفسه لم نستطع إنقاذ أي كتاب، وكنت قد نقلت إليها المجموعات الكبيرة من المؤلفات والص
نادرة أهداني القسم القديم منها السيد عبدالصاحب الحسني (1909- 1998)، و'الهلال' شبه كاملة (أول مجلة ثقافية
الأديب اللبناني - المصري جرجي زيدان) ومجلة 'الآداب' و'الشعر' إلى صحف ومجلات تعنى بأدب الأطفال 'سامر'
كثيرة. إن مجموع الكتب في المكتبتين يزيد على 20 ألف عنوان، وبعض العناوين مجموعات كبيرة من 7 مجلدات و

وبرأي زراقط "يمكن تعويض بعض الكتب الموجودة في المكتبات العربية، لكن كيف يمكن تعويض مجموعة العرفا
جداً من بعض العلماء على نحو الشيخ إبراهيم سليمان (1910- 2004) وما يوجعني مجموعة 'الأغاني' و'تاريخ ال
ومجموعة المخطوطات القديمة".

ويوضح الأديب زراقط الذي تناولت معظم مؤلفاته أبحاثاً وروايات وقصصاً عن جنوب لبنان وأدب الرحلة في جبل
وجامعاتها "يوم نقلت جزءاً من مكتبتي إلى الجنوب كنت أراهن على الانسحاب الإسرائيلي الذي تحقق عام 2000 و
الردع' بين إسرائيل و'حزب الله'، بعدما بنيت منزلاً جميلاً وسيجته ببستان واسع فيه كثير من أنواع الثمار وشجرة ص
لم أحزن على ما فقدته من بناء وحجر بقدر ما حزنت على مكتبتي وعلى ذاكرتي وذاكرة عائلتي في المنزلين، ذاكرة
لم يبق منه العدوان شيئاً".

قبل رحيل الكاتب والشاعر والتشكيلي عبدالحميد بعلبكي (1940- 2013) نقل أعماله التشكيلية ومكتبته الضخمة إلى
بنى فيها داراً جميلة من طبقتين زينها بأعماله وكتبه النادرة، وفي أحد أركانها دفن إلى جانب ضريح زوجته أم أولاد
هدنة، دمرت إسرائيل دارة بعلبكي ولم يسلم منها إلا زاوية تحوي جزءاً قليلاً من مكتبته.

يتحدث الفنان التشكيلي أسامة عبدالحميد بعلبكي عن بيت العائلة فيقول "يوم بدأ والدي يبني بيتنا في القرية عام 984
الضيعة تارة ثم إلى بيروت تارة أخرى، بحسب التنقلات القلقة بفعل الممارسات الإسرائيلية بين فترة وأخرى، لكن ال
بضاحية بيروت الجنوبية، وكان والدي في كل مدة يزيد عليها ما يتسنى له شراؤه من مكتبات قديمة وكتب نادرة. بعد
في معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية انتقل إلى الجنوب وبقي فيه مدة طويلة، آنذاك نقل كامل مكتبته إلى بلدة
التشكيلية ومنحوتاته".

ويتابع الفنان بعلبكي الابن "تحوي مكتبة أبي التي بدأ بتأسيسها مطلع السبعينيات من القرن الماضي بصورة خاصة
في لبنان والعالم العربي والغربي، ومجلدات فاخرة وكتب تراثية وطبعات أولى لكتب نادرة بما لا يقل في الحد الوسط
ذلك بكثير، منها مجموعة 'كشف المخبا عن فنون أوروبا' (1857) و'سر الليالي في القلب والإبدال' (1868) لـ'الس
فارس الشدياق (أديب وشاعر ولغوي ومؤرخ، وأحد رواد النهضة العربية الحديثة 1804- 1887)، ومجموعة الط
1873) وهو أحد كتاب وشعراء النهضة العربية، وكتب الأدب المهجري لفوزي المعلوف (1899- 1930) ومكتب
(1875- 1950) التي تحوي مؤلفات من التراث العربي والإسلامي إلى كثير من المكتبات القديمة وأعداد لا تحصى
الماضي".

ويشير بعلبكي إلى أن "ما أنقذ معظم أعمال أبي التشكيلية من الدمار هو المعرض الاستعادي الذي أقمناه ببيروت عام
العاصمة اللبنانية (واستخدمت في معرض متحف سرسق 2025)، ومجموعة المخطوطات ورسائل مصطفى كامل

(1874- 1908) ومراسلات مؤسس المملكة العربية الحجازية الشريف حسين بن علي (1853- 1931) التي سار
2023. والمكتبة التي توزعت في غرف الطابقين الأول والثاني وفي ملجأ البيت في بلدة عديسة يضاف إليها المكتبة
مطلع السبعينيات كلها انهارت تحت الردم والركام مع عدد من اللوحات الزيتية لأبي ورفاقه وأعمال ورقية (نحو 60

مكتبات تحت الردم

الكاتب والمؤرخ مصطفى بزي من بنت جبيل يؤكد بدوره أن "أكثر من 90 في المئة من بيوت المدينة ومؤسساتها و
بصورة كاملة صار متضرراً ومصدعاً بصورة كبيرة جداً، وما تبقى من بيوت هي تحت رحمة الله، والمشكلة الأساس
فلدي تحت إشرافي في بنت جبيل مكتبتان، مكتبة البيت الخاصة وفيها أكثر من 5 آلاف كتاب وأبحاثي وكتبي المؤلفة
والمكتبة الثانية العامة وأنا عضو هيئة إدارية فيها وتتكون من نحو 15 ألف كتاب وتقع وسط سوق بنت جبيل. هاتان
بنفسي ويعتصر قلبي خسارتهما. لست آسفاً على البيوت والحجارة، بل على هذه القيمة الثقافية والإنسانية التي لا تقدر

ويتحدث الكاتب بزي عن أن "المكتبة العامة في السوق، أبلغنا بأن القصف طاولها ودمرها، بعد تدمير مدرسة عبدالله
إضافة إلى مباني المتاجر حولها، وإذا سلمت من الدمار الشامل فستكون في حال مزرية. في بنت جبيل وغيرها من ق
ومعظمهم يمتلكون مكتبات بالغة الأهمية فضلاً عن المكتبات القديمة ومنها مكتبة المرجع الشيعي الكبير محسن الأمين
جبيل) ومكتبة ابنه جعفر الأمين (1908- 1981) ومكتبة علي فضل الله في عيناثا (بنت جبيل) ومكتبات آل سرور
المؤرخ منذر جابر في بنت جبيل ومكتبات لا تعد أو تحصى، كوَّنها أصحابها أو ورثوها عن أهلهم وآبائهم وهي ذات
كثير منها بات في الحرب الأخيرة تحت الردم".

ويوضح المؤرخ بزي أن "أهم مكتبة في الجنوب كانت مكتبة علي هاشم الحكيم (1927- 2024) فيها ذخائر ونفائس
و30 ألف كتاب، ورثها عن والده وعززها هو طوال حياته وهي ضخمة مهمة جداً. كان بيته تعرض في حرب يوليو
عدد من المهتمين بنقل كتبها إلى مكان آخر بغية حمايتها ونقلت لاحقاً إلى بيت آخر بناه الحكيم، وكانت تعتبر مرجعاً
كاتب في الجنوب يسارع إلى إهداء نسخة من مؤلفه إلى مكتبة الحكيم لما لها من أهمية كبرى، وفيها مخطوطات وكت
المكتبة دمرتها الحرب الأخيرة وكذلك مكتبة شقيقه السيد مهدي الحكيم".

أيضاً دمرت إسرائيل، في الحربين الأخيرتين، عدداً كبيراً من المكتبات العامة المجهزة بوسائل تواصل وإنترنت وتح
للكمبيوتر، منها مكتبة الخيام (مرجعيون) التابعة للبلدية ومكتبة نادي الخيام الثقافي ومكتبة الطيبة (مرجعيون) التابعة

من مكتباتها الخاصة المرجعية.

مكتبة بلدة الخيام من الداخل قبل التدمير (كامل جابر- اندبندنت عربية)

المؤرخ عبد المجيد زراقط وخلفه مكتبته التي دمرتها الحرب في الضاحية الجنوبية (كامل جابر- اندبندنت عربية)

دارة عبد الحميد بعلبكي في عديسة (كامل جابر - اندبندنت عربية)